

اجتهادات استخف بالتاريخ .. فصدمه

تدل كتابات فرانسيس فوكوياما وتعليقاته فى الشهور الأخيرة على أن الصدمة التى أصابته، منذ فوز دونالد ترامب فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، تزداد بشكل مطرد. كان فوكوياما قد بدأ يدرك فى السنوات الأخيرة أن «نظريته» التى طرحها فى نهاية ثمانينيات القرن الماضى عن «نهاية التاريخ» لم تكن إلا «نزوة» فكرية تصيب أى عقل، مهما كان كبيراً، إذا سيطر عليه جمود أيديولوجى. وكان كتابه «النظام السياسى .. والاضمحلال السياسى» الصادر عام 2014 تعبيراً ضمناً على أنه بدأ فى إدراك أن النظام السياسى القائم على الديمقراطية الليبرالية- التى بشر بأنها خاتمة التطور الإنسانى- لا يخلو من اختلالات ونقائص.

غير أن إدراكه ذلك لم يصل إلى مراجعة أطروحته التى طرحها فى مقالة «نهاية التاريخ» التى نُشرت فى مجلة «ناشيونال انترست» فى صيف 1989، أى فى حالة نشوة ارتبطت بسقوط جدار برلين، ثم طوّرها فى كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» الصادر عام 1992 فى لحظة بدا له فيها أن العالم لا يتغير فقط، بل يأخذ صورته النهائية التى لن تتغير.

وكان واضحاً لمن يتابع فوكوياما أن صعود الأحزاب والحركات القومية المتطرفة والشعبوية فى أوروبا فى السنوات الأخيرة، وإدراكه الاختلالات المتزايدة فى النظام السياسى الأمريكى، أحدثا شيئاً من الاضطراب فى

تفكيره. وتحول هذا الاضطراب إلى صدمة حادة بفعل نتيجة انتخابات الرئاسة الأمريكية التي نزلت عليه، فيما يبدو، كأنها صاعقة على النحو الذى نستشفه من كتاباته الأخيرة.

ويعود خطأ فوكوياما الجوهري إلى استخفافه بالتاريخ، والخفة التي تعامل بها مع مرحلة شهدت تحولاً مهولاً بالفعل، ولكنها لم تكن إلا مرحلة 0 ورغم أنه لم يخطئ في فهمه أن حركة التاريخ تمثل عملية ارتقاء متواصل، فقد أخطأ حين تخيل أن هذا الارتقاء يحدث عبر تطور خطى في اتجاه واحد، ولم يدرك أنه متأرجح يشهد خطوات إلى الأمام وأخرى إلى الوراء.

وهكذا لقن التاريخ فوكوياما درساً بليغاً عندما استخف به. وليت كل من يستهينون بالتاريخ يعرفون أن هذا مصير من يتعالون على دروسه، أو يتجاهلون ما يكون ماثلة أمامهم لا يتطلب إدراكها سوى التفاتة إلى ما حدث في بلادهم قبل عقود قليلة، لكي لا يعيدوا إنتاجه.